عمار بلحسن وإبداعاته السرديّة-قراءة في أعماله القصصيّة

ميمونة مقيدش.

طالبة دكتوراه:نقد ومناهج (كلية الآداب واللّغات والفنون، جامعة سيدي بلعباس)

الملخص:

عمار بلحسن مفكّر اجتماعي وشخصيّة أدبية تعاني التّهميش والنكران ،له أسلوب تعبير مميّز نظرا لتمرده على النهج المألوف في كتابة الفنّ القصصيّ الجزائري حيث زاوج بين الأدب وعلم الاجتماع ضمن تجربة هي الأولى من نوعها في الوطن العربي .

خلف ثلاث مجموعات قصصيّة:"حرائق البحر"و "أصوات" و"فوانيس "، عبّر من خلالها عن معاناته من ألم السرطان الّذي أنهى حياته،فكانت له المتنفس لتقاسم الأوجاع مع وطنه الحبيب الّذي عايش فيه مختلف الأزمات والنكسات .

يستدعي ذلك كلّه إزالة غبار النسيان الّذي ظلّ يحول دون معرفتنا بالتركة الأدبية لصاحب الأصوات انطلاقا من الإشكاليّة التاليّة : كيف عالج بلحسن موضوعاته القصصيّة؟

Abstract:

Ammar Belhassen is a social thinker and literary personality who suffers from marginalization. He has a long history in Algerian storytelling ,behind three stories:"Sea Fires", "Voices" ,"Lanterns".

The lantern owner has a distinctive expression of his rebellion against the familiar approach of writing the Algerian story, where he combined literature and sociology in an experiment that is the first of its kind in the Arab world.

All this calls for the removal of the dust of oblivion that has kept us from knowing the literary for Ammar. On the basis of the following: How did he treat his stories?

تمهيد:

تعدّ القصّة أحد أهمّ أشكال السّرد المعاصر المشكّل لعصب الحياة الأدبية الحالية،فاختلاف وتنوّع تمظهراتها النّصيّة ومرونة بنيتها السّرديّة جعلا منها قِبْلَةً لكلّ أديب يسعى إلى التّعبير عن قضايا متعدّدة تمس ميادين شتى.تغدو القصّة أنسب الفنون السّرديّة تصويرا للأزمات الاجتماعيّة تحديدا،حيث يجد فيها القاص حريّة للتعبير عن انتكاسات واقع مرفوض كنوع من التّمرد الفكري هروبا من الرقابة السياسيّة،ويرى فيها وسيلة للاستفراغ وترجمة حرفيّة لمكنوناته النّفسيّة،وفق أسلوب فنيّ عميق غير مباشر يطغى عليه الغموض والغرابة ما يمثّل شعريّة متناغمة...هكذا بنى بلحسن نسيج أعماله القصصّيّة التّي غطت ثلاثة عقود من الزمن:السبعينيات والثمانينيات والتسعينيات،انطلاقا من حواراته الفنيّة الّتي ضمّنها مجموعاته الشّهيرة:حرائق البحر والأصوات وفوانيس.

ذلك كلّه يثير التّساؤل عن كيفيّة الطرح الفنيّ لموضوعات هذه الثلاثيّة؟

عمار بلحسن قامة فكريّة بارزة فنيّا- وإن غيبها الزمن –عالية الشّأن لتكوّنه التّخصصّي في علم الاجتماع الثّقافي الّذي أتاح له الوقوف على أسباب الظواهر الاجتماعيّة مبديا رأيه بثقل ورجاحة إزاءها مستشرفا نتائجها المستقبليّة بنظرة موضوعيّة،إلى جانب ذلك اهتمامه بالأدب كحقل وجد فيه ضالته الكتابيّة،ما جعل منه كمفكّر:يعدّ((أوّل مؤسس لعلم الاجتماع الأدبي))[1] في الوطن العربي بإقرار معاصريه ومن تلاه،أما كأديب قاص فيصنّف في قائمة أعلام القصّة القصيرة الجزائريّة[2] برصيد ثلاثي الإبداع،خاض من خلالها مسيرات وصراعات طارحا تصورات فريدة من نوعها مغايرة لما طرقه معاصروه من موضوعات آنذاك،حيث غلب على أمرهم الالتزام بقضايا محدّدة سلفا تحكمها أيديولوجيا معينة،في حين فضّل بلحسن طرحا مغايرا حرّا كسبيل يُطْلِقُ بواسطته العنان لموهبته الكتابيّة النادرة وإن كان وضعه يضمّ معالجات تتجاذب وما طُرِحَ من تناولات سابقة لدى

جيل كتاب الثّورة أو مزامنة لما عرضه جيل الاستقلال،إلا أنّه يخالف طرق العرض تلك بأسلوب متفرّد غنائيّ وحجج ذاتيّة مقنعة تجعله يجادل ويواجه متلقيه دون عصبيّة أو إكراه لكسب تأييده،متناولا قضيته بآفاق واسعة عامة تفوق الالتزام التّوجيهي،عارضا لمشكلات الإنسان في مجتمعه من وجهة نظر إنسانيّة وفق إيحاءات شعريّة في ثوب سردي محكم الحبك متجانس الطرح.

موضوعاته القصصيّة :

❖ *حرائقالبحر*: أوّل تجربة قصصيّة أشعلت فتيل الإبداع لدى عمار بلحسن نتج عنها "حرائق البحر" الّتي ضمّت عشرة نماذج[3] لا تحمل أيٌّ منها عنوان المجموعة،الأمر الّذي جعل من العنونة عتبة وخيط ربط دلاليّ وثيق تتقاسمه وتتشاركه جلّ النّصوص المذكورة ضمن حرائقه،ما يفسّر وجوديّا كثرة مكابدة الإنسان الجزائري لإرهاصات وضغوطات الواقع الاجتماعيّ المعيش (سياسيّا وثقافيّا واقتصاديّا)نتيجة أيديولوجيات تعاقبت وتضاربت في ما بينها واقعيا ليمس صداها هذا الكائن الضعيف بهول من ((الهموم الصّغيرة في يوم قائظ جدّا))[4]-كما سماها بلحسن –جسّدها ((الجوع))[5]و((الجراد))[6]و((الحبّ في عز الغربة))[7]((زمن الجري في الاتّجاه الصحيح))[8]،هذا الجري الّذي باء بالفشل الذريع في مهمّة تحقيق حلم الكادحين تطلعا إلى مستقبل أفضل،لينتهي الأمر بالغرق في ((معاناة البحر))[9] فيستمر الشقاء والضياع والإهمال والتّهميش في ((مغامرة الحوات))[10]محاولة ل ((الولادة خارج المدن))[11] وتظل العنصرية عنوانا ل ((بانوراما))[12] التّخلف والرجعيّة والتّميّز الطبقي.

تمتدّ هذه الحرائق وتتفرّع منتشرة في اتّجاهات عديدة بحثا عن بر الأمان منطلقة من البحر لتعود إليه كبداية ونهاية حتميّة،إذ يشكّل لها مساحة ملائمة لإخماد لهب نيرانها الحارقة ونثر رمادها ومنبعا للرزق ومعبدا لتأمل خلجات النّفس والوصول إلى استقرارها وراحتها،ذلك أنّ البحر يمتص تلك الأوجاع والآلام والطاقات السلبيّة لتغوص في أعماقه عبر تياريّ المدّ والجزر فيلتئم الكَلَمُ مناجيا فرجا قريبا وفجرا جديدا راغبا في تجاوز الصّعاب واستشراف مستقبل أفضل،لتغدو المعاناة في خبر((كان ذات مرة في بلدة))[13]مجرد حكاية للسمر وإلى ذلك الحين تبقى خيبة الأمل هي السلطان والحقيقة المرّة المهيمنة على الوضع الراهن.

❖ *الأصوات*:وهي ثاني جهد أدبي يطرح فيه بلحسن أفكاره وفق نسيج سرديّ ثلاثيّ المقاطع،مجسّدا التّاريخ الوطني فنيّا((بوصفه مبررا موضوعيّا للموقف الّذي يقفه

البطل،وموقفه نتيجة حتمية لذلك التاريخ))[14] ما يعني أنّ استحضار واستدعاء بلحسن للتاريخ ضمن قصته((الأصوات))[15] ليس اجترارا للبطولات الثّوريّة وتكرارا لها وإنّما هذا التّوظيف التّاريخي من قبل الكاتب غرضه التّحفيز وبعث النخوة والحماس في ذات بطله مواصلة لسجل أمجاد أسلافه،حفظا لعراقة التّاريخ وشموخه،مؤكّدا صدق رؤيته مؤمنا بحقيقته،لا أن يقبل الهزيمة و الإهانة متخليّا عن قناعاته تحت أي ظرف وهو مدرك أنّها على صواب فيلحقه العار،ما يجعل مهمّة التّمييز:بين ما إذا كان عمّار قد عرّج على هذا التّلميح التّاريخي لغاية بعيدة الأفق أو إنّ في ذلك إعادة لسرد الوقائع لا غير.غير أنّ القارئ المتمكّن سيكشف عمق الظاهرة وأبعادها الدّلاليّة ليقف على تجليّات الضمائر المخاطبة في النّص القصصيّ بين الفينة والأخرى،القائمة على تبادل أدوار الحوار بين بطل القصّة ((علي بوسدرة))[16] والصّوت الغريب الّذي يناجيه والّذي يمثّله المؤلف"بلحسن" بأسلوب ضمنيّ يضفي على النّص كبنيّة تناغما فنيّا والقصّة كجنس سرديّ خطابيّ شحنة دلاليّة.

تصوّر هذه الفنيّة النّصيّة والدّلالة الخطابيّة الصّراع الطّبقي[17] في مجتمع الجزائر المستقلة حديثا وهي تحاول إعادة هيكلة البيت الوطني من جديد وفق ما ترتضيه بديلا،ملغية لتضحية ((محجوب))[18] في ((المحكمة والعنقاء))[19] كحامل وحام لقضيّة المساواة بين الطّبقات تفاديّا للنزاعات.

كما نلفي ضمن هذا المجموعة القصصيّة ذكرا لأفعال لا أخلاقيّة مخلّة بالحياء تصوّر ذلك الانحطاط الّذي آل إليه الوضع نتيجة الإكراهات التّعسفيّة لسوء حال المجتمع،الّذي أرغم على ارتكاب مثل هذه الأفعال بحثا عن راحة نفسيّة واجتماعيّة للخروج من دائرة الحرمان الّتي يعيشها يوميا؛فهذه فتاة تسعى إلى إغواء مدير لتحصل على لقمة عيش غير أنّه يسافر لترجع خائبة الأمل يغسل المطر أناقتها،وتبقى ((الطفلة والهمج))[20] سوقا جنسيّة تعرض فيها الفتيات مفاتنهن لاستمالة قائد همجي يرضى عنهن ويضمن لهن فرصة التّواجد ضمن ركبه وهيئته؛وإذا كان هذا هو الحال الراهن للطّبقة المثقّفة في المجتمع فما بالك بحال العامة الّتي يسعى فيها الفرد إلى إشباع هذا الفراغ و إن كان بإجازة غير مقصودة،ففي ((حرائق أصابعها))[21] تصوير لما أصبح عليه تواجد المرأة في مختلف الأماكن خاصة المزدحمة منها أين يشكّل فرصة للمحرومين جنسيّا لتغذية تلك الحاجة إما بالملامسات والالتحام جسديا أو حتّى الاكتفاء بالنظر فقط،استغلالا للوضع المتاح ،وهذا((حميميد بياع الكاوكاو))[22] دفعته الحاجة إلى العمل في شوارع الحارة حيث يعرفه

أهلها كيف لا وهو الّذي كانت أمّه تتاجر بشرفها لتطعمه وبعد هرمها ومرضها دارت عجلة الحياة ليعيلها حميمد الّذي اختار الخبز الحلال ورضي بالقليل رغم مرارة الزمن وكثرة الهمج،وذاك حال((الطير الحرّ–وهو- ينزف عشقا)) [23] في الاعتقاد الشّعبي و((رحيل وراء خيط دم)) [24] وغيرها من الأصوات الّتي ضاقت ذرعا بسوء الأحوال لتبحث عن متنفّس يخفّف عنها أعباء الحياة،وإن كان لمعظمها الموت نهاية حتميّة تعرض لها عمار في أوشام جنائزية.وتبقى ((ثلاثيته عن الحاء والباء)) [25] مجرد حلم يقظة يعيشه الإنسان هروبا من ضغوطاته الحياتيّة حبّا للمرأة وللغة وللأرض...لذلك كلّهدلالة عن استلاب أحلام المواطن كإنسان وقتل طموحه وطمس حقوقه الّتي تعفنت من قلّة فسح مجال الاستعمال والتّجسيد الواقعي مستقرّة في خطاب الشّعارات حبرا على ورق.

❖ *فوانيس*:هي ثالث محاولة سرديّة لبلحسن ينتشل فيها بطله من دوامة الأيديولوجيات المتناطحة الأهداف حيث يستمر الحلم نجما يسطع كفانوس ينير درب الساعي إلى تحقيقه ولمسه وإن كان يقرّ أنّه بعيد المنال،فتستمر الحسرة في ((آه..من تلك النجمة)) [26] تعبيرا عن عمق المعاناة في تجربة إبداعيّة غير معتادة في الأعمال القصصيّة برمتها ميّزتها اللّغة الشّاعريّة ذات الأسلوب السردي وهو ما ميّزه ككاتب للقصة القصيرة عن غيره من الناشطين في الفنّ ذاته أمثال: الحبيب السائح ومرزاق بقطاش وواسيني الأعرج وأمين الزاوي وغيرهم ممن عاصروه.

لعلّ المعروف عن((قدرة السّرد على نقل السلوك الإنسانيّ،والتّجارب،والخبرات،عن طريق الحكيّ)) [27] ما نلفيه ضمن نصوص فوانيس أين يصبح بلحسن ذاتا مضمرة تعبّر بلسان أبطاله وشخصيّاته القصصيّة عن خيبة الأمل في الحياة الواقعيّة الّتي زاد حالها تعقيدا وسوءا وكأنّ الجزائر لازالت تحت وطأة الاحتلال لم يتغيّر وضعها بعده وإنّما بقي على حاله أو تأزّم أكثر،خاصة بعد توافد الثّقافات الأجنبيّة المهدمة والمفكّكة للمجتمعات -وبالأخص اقتصاديّا- في تلك المرحلة الحرجة الّتي مرت بها البلاد حينذاك. ذلك كلّه جعل عمار بلحسن متأثرا بأوضاع مجتمعه وبحكم ثقافته وموهبته الإبداعيّة تناول هذا الصّراع بالوصف والشّرح والاستنتاج حيث طرح وفق ((منظور سردي كلاسيكي))[28] التّبعات الّتي سيخلفها احتضان ذلك ((التّنين))[29] اللّعين كمنحى جديد لبناء المجتمع،محاولا توعيّة أبناء جلدته وتنبيههم بخطوة الأهداف الخبيئة والنتائج الخبيثة الدفينة وراء تلك المغريات الظاهرة المزيفة الّتي يحملها "التنين" لنفثها نيرانا تحرق الأخضر واليابس وكأنّه –وأقصد

عمار-يزيح السّتار كاشفا جشع السلطات العالميّة الرغيدة وغايتها في اكتناز أموال الشّعوب الفقيرة وامتصاص جهدهم،مقابل إلهائهم وصب انشغالهم على مقولة التّقدم والانفتاح،تلك الأكذوبة الناجحة عالميّا الفارغة وطنيّا ودينيّا،ذاك هو ما يحيل إليه بلحسن ويشحنه برموز عميقة الدّلالة في فقرات قصصه.

ضمن المجموعة ذاتها ينزاح حديث بلحسن عن الحداثة المعطوبة إلى((واريس))[30] تلك المحطة المخصّصة لغسل روحه الكَلْمَةِ،محوا لآثار الألم وتضميدا لجراح الزّمن،ذلك المتنفس هروبا من حرائق الضغوطات اليومية .

ثم ينتقل إلى جداريات فوانيسه الّتي تشكل مرآة عاكسة لحلم صار في طيّ النسيان مجرد تذكار أو صورة تشغف لها النفوس ((المتبتلة))[31] وتتحمس في حال من المناجاة لتنصدم بواقع خيبة فيذبل الإصرار ويتراجع،حينها تستحوذ((الغجرية))[32]على الجمل بما حمل،تدبّ سمّها في كلّ أرجاء المعمورة منتهزة دهشة المتأملين بها والمستجيبين لها، لتبقى((ريجينيا))[33] تلك الغاية المنشودة الّتي لحقها الخرق والتمزق ويظل ((المنور))[34]ذاك الفانوس الصّغير الّذي ينير درب الحلم المنتظر لعلّ وعسى يأتي من يكمل المسيرة،ويملأ تلك المساحة الفارغة التي تشغل حيزا من الذاكرة.

استنتاج:

✓ استطاع بلحسن أن يضاهي فطاحلة السّرد القصصيّ الجزائري وحتّى العربي بأسلوب عرضه لمختلف القضايا الإنسانيّةبتركيب سردي نادر ميّزته الشّاعريّة،كونه أوّل من أسس لعلم الاجتماع الأدبي فاسحا مجال فهم النّص كموضوع سوسيولوجيّ ثقافيّ ما زاد النّص رونقا وعمقا فنيّا،وعليه يمكن القول إنّ عمار موسوعي الثّقافة.

✓ لغة عمار في أعماله القصصيّة تَزَاوُجٌ بين الفصحى واللهجة العاميّة،ومزيج من خلفيات أدبية وسوسيولوجيّة وصوفيّة.

✓ لعمّار بلحسن حسّ مرهف وهو يكتب قصصه الثلاثينمّ عن حال فرديّة أو شخصيّة يعايشها،مماثلة للواقع الّذي يتحدّث عنه فنيّا،كيف لا وهو الّذي عانى الأمرين فيزيولوجيا وسيكولوجيا:إصابتهبالسرطان،وأسفه للحال الّذي آل إليه الواقع الجزائري الحديث،فشكلت الحرقة والأنين والأمل قاسما مشتركا بين القاص وموضوعاته القصصية "حرائق البحر" و"الأصوات" و"فوانيس"تعبيرا عن صراعه مع المرض إسقاطا وتمثّلا لصراع الطبقات وفروقها.

✓إنّ الموضوعات القصصيّة لعمّار وإن تنوعت قضاياها سرديّا فإنّ الخيط الرابط بينها هو ذلك الأمل والحلم المتواصل استشرافا لمستقبل أفضل وواقع أحسن.

✓ لعلّ تتابع إصداراته لقصصه على التّرتيب : حرائق البحر1981،الأصوات1985،فوانيس1991،لدليل على توالي الأحداث وتسلسلها تاريخيا،فمعظم هذه السنوات شابها النّزاع وصاحبتها أزمات خانقة أسفرت عن خسائر وخيمة سياسيّا واجتماعيّا وثقافيّا واقتصاديّا مما سبب فوضى عارمة تمّ تجاوزها بصعوبة.

✓ اهتم بلحسن بموضوع الإنسان والمرأة والشّعب،ما يدّل على أنّه ذو نزعة إنسانيّة وقوميّة ووطنيّة حتّى النّخاع.

✓ ينتمي بلحسن إلى جيل الاستقلال ذاك الجيل المخضرم الّذي عايش الثورة ملاحظا لصغر السّن،مكافحا عصاميّا لبناء وطن جديد بعدما اشتد عوده فكريّا ووطنيّا.

✓ اهتم عمّار في نصوصه القصصيّة انطلاقا من حرائقه مرورا بأصواته وصولا إلى فوانيسه بالطّرح الشّعبيّ المعروف عن المجتمع الجزائريّ.

وهنا يحطّ الرحال إعلانا عن نهاية هذه السطور حول عمّار بلحسن وموضوعاته الشيّقة،الّتي تستدعي الوقوف عليها وقفة الدّارس المتمرس لفلق كُنَهَا والتماس جوهرها الإيحائي،ليبقى البحث فيها مستمرا مفتوحا يتسلّمه أهل العلم والدّراية لنفض غبار النسيان الّذي ظلّ يحول دون معرفتنا بقامة هذه الشّخصيّة الفذّة وإرثها الفنيّ البليغ.

الهوامش:

[1]-ينظر: ربيعة جلطي ،عمار بلحسن: مجد القصة القصيرة،الجمهورية ،04-12-2017،https://djazairess.com، 18-08-2018، 12:39:57.

2-ينظر:طه وادي،القصة ديوان العرب-قضايا ونماذج،الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان،مصر،ط1، 2001،ص108.

3-ينظر:عمّار بلحسن،حرائق البحر،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،الجزائر،د ط،1981،ص167.

4-عمّار بلحسن،حرائق البحر،ص19.

5-المصدر نفسه،ص93.

6-نفسه،ص13.

7-م.ن،ص157.

8-ن،ص31.

9-ن،ص111.

10- ن،ص75.

11-عمار بلحسن،حرائق البحر،ص05.

12-المصدر نفسه،ص65.

13-نفسه،45.

14-مخلوف عامر،مظاهر التجديد في القصة القصيرة بالجزائر-دراسة-،منشورات اتحاد كتاب العرب،دط،1998،ص99.

15-عمّار بلحسن،الأصوات،المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر،دط،1985،ص27.

16-المصدر نفسه،ص27.

17-ينظر بشير مفتي،المنبر غائب والحداثة معطوبة:من يتذكر عمّار بلحسن في ذكرى رحيله،الأخبار،27أيلول2007،https:al-akhbar/com،2018-09-07، 00:44:49.

18-عمار بلحسن ،الأصوات،71.

19-المصدر نفسه،ص63.

20-نفسه،51.

21-م.ن،ص11.

22-ن،ص187.

23-ن،ص155.

24-ن،ص167.

25-ن،ص83\137.

26-ن،ص109.

27-إبراهيم سعيد السيّد،تحليل السّرد في القصّة السعودية وبناء التّأويل-دراسة في المقاربات النقّديّة(ملتقى النّقد الأدبيّ في القصّة القصيرة في المملكة:مقاربات في المنجز النّقديّ)،المركز الثقافي العربي،المغرب،ط1، 2017،ص289.

28-عبد القادر فيدوح،شعريّة القصّة،الديوان الوطني للمطبوعات الجامعية،وهران،د ط، 1996،ص41.

29-عمار بلحسن ،فوانيس،المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر،د ط،1991،ص31.

30-عمار بلحسن،فوانيس،ص15.

31-المصدر نفسه،ص 75.

32-نفسه،ص66.

33-م.ن،ص81.

34-ن،ص89.

قائمة المصادر والمراجع

1 -المصادر:

-بلحسن عمّار،الأصوات،المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر،دط،1985.

- بلحسن عمّار،حرائق البحر،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،الجزائر،د ط،1981.

- بلحسن عمّار،فوانيس،المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر،د ط،1991.

2 - المراجع:

- السيّد إبراهيم سعيد،تحليل السّرد في القصّة السعودية وبناء التّأويل-دراسة في المقاربات النقّديّة(ملتقى النّقد الأدبيّ في القصّة القصيرة في المملكة:مقاربات في المنجز النّقديّ)،المركز الثقافي العربي،المغرب،ط1، 2017.

- وادي طه،القصة ديوان العرب-قضايا ونماذج،الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان،مصر،ط1، 2001.

-فيدوح عبد القادر،شعريّة القصّة،الديوان الوطني للمطبوعات الجامعية،وهران،د ط، 1996.

- عامر مخلوف،مظاهر التجديد في القصة القصيرة بالجزائر-دراسة-،منشورات اتحاد كتاب العرب،دط،1998.

3- المواقع الالكترونية:

- مفتي بشير،المنبر غائب والحداثة معطوبة:من يتذكر عمّار بلحسن في ذكرى رحيله،الأخبار،27أيلول2007،https:al-akhbar/com،2018-09-07، 00:44:49.

- جلطي ربيعة،عمار بلحسن:مجد القصة القصيرة،الجمهورية ،04-12-2017،https://djazairess.com،2018-08-18، 12:39:57.